

المخطوطات أماجد مركز أبحاث

خدمات

بحثة

تصوير

مخطوطات

تم تصوير المقال عن طريق
مركز أماجد للمخطوطات ورعاية الباحثين

العنوان: أسامة بن منقذ الكتاني وقصة مخطوطة كتاب المنازل والديار

المؤلف: عيسى فترح

جهة النشر : مجلة المجمع العلمي العربي أبريل - 1999

عدد الأوراق: من صفحة ٤٠٩ - ٤١٤

ملاحظات:

K5A: (00966) 0566489234

EGY: (002) 01001133781

www.amgadcenter.com

<https://www.facebook.com/amgadcenter>

<https://twitter.com/amgadcenter>

<http://www.youtube.com/user/amgadcenter>

info@amgadcenter.com

أسامة بن منقذ الكناني وقصة مخطوطة كتابه «المنازل والديار»

الأستاذ عيسى فتوح

كنت أظنّ فيما مضى أن الشاعر والفارس أسامة بن منقذ الكناني (٤٨٩-٥٨٤ هـ، ١٠٩٥-١١٨٨ م) لم يؤلف إلا كتاب «الاعتبار»، الذي حققه المؤرخ اللبناني الدكتور فيليب حتي، إلى أن اطلّعت على قصة اكتشاف المشرق الروسي كراتشكوفسكي مخطوطة كتابه الآخر «المنازل والديار» عام ١٩١٨ في روسيا، بعد أن نقلها إلى هناك السيد «روسو» فحصل سويسرة في حلب، ثم قام بعد ذلك بتحقيقها ونشرها.

وبعد ذلك بزم طويل، في عام ١٩٧٥، أعدّ الدكتور وهيب طنوس أطروحة دكتوراه في الأدب العربي، تناول فيها حياة أسامة بن منقذ وشعره وأدبه بأسلوب موضوعي علمي، معتمداً أوثق المصادر التاريخية العربية والأجنبية، وقد وضع لأطروحته عنواناً هو «الوطن في الشعر العربي»، مستنداً إلى كتاب (المنازل والديار) بالدرجة الأولى^(١).

لقد درس الدكتور طنوس مؤلفات أسامة بن منقذ الكناني، ومنها كتاب (المنازل والديار)، الذي يقع في ٢٥٠/ ورقة، تضمها مخطوطة وحيدة للكتاب، فريدة في العالم، ومحفوظة في معهد الدراسات الشرقية، فرع لينتغراد سابقاً (سانت

بترسبورغ حالياً)، والكتاب مؤلف من ستة عشر فصلاً، وفي كل فصل أشعار وقطع
ثرية تدور حول المعنى الذي يتطوي عليه عنوان الفصل.

وقد استعرض الدكتور وهيب طنوس موضوعات هذا الكتاب، فأشار إلى أنه
حافل بمجموعة كبيرة من الأشعار التي تنسم بالحزن والحنين وذكر التواب والفراق
والبكاء على الأطلال والديار، في حين أن المقطوعات الثرية فيه قليلة. وبين أن الدافع
لتأليف الكتاب كان دافعاً خاصاً ذاتياً يرمي إلى مواسة نفس المؤلف، والثرع عها،
بعد أن أصابه ألم محض، وحزن قاهر، في أعقاب مأساة أليمة حلت بأهله، فأتت
عليهم جميعاً، بعد زلزال مدمر أصاب قلعة شيزر، قرب حماة على نهر العاصي،
حيث كانوا يقيمون. لقد كان الكتاب صدى لمأساة أسامة بن منقذ وترجعاً لشاعره
الحزينة، فضلاً عن أن المؤلف عمد فيه إلى الاستطراد، فتناول موضوعات ثانوية
متنوعة ليس لها ارتباط بالهدف الأساسي للكتاب، وذلك طلباً للتنوع والتسليّة وعدم
إرهاق القارئ وإملاله.

كما بين الدكتور طنوس أن قبعة هذا الكتاب تكمن في كونه أثراً أدبياً من
أثار القرن الثاني عشر الميلادي (القرن السادس الهجري)، وهذا ما جعله مرجعاً هاماً
من مراجع دراسة الأدب في ذلك القرن، فهو يعبر عن روح ذلك العصر، كما يعبر
عن شخصية أسامة بن منقذ.

وأشار إلى أن أهمية الكتاب تنبع من أنه يتضمن مادة غزيرة تتميز بطريقة
ترتيبها، فهي تصلح لأن تكون أساساً لدراسة الموضوعات الأدبية في الشعر العربي،
فقد احتوى الكتاب على نحو من خمسة آلاف بيت من الشعر العربي، بعضها لم يرد
في دواوين أصحابها. وقد كان اختيارها يتم عن ذوق أدبي رفيع، وإحساس نقدي
مرهف، فالكتاب بذلك يتشابه مع المجموعات الشعرية المشهورة في الأدب العربي
كالحماسة والأمال^(١).

أما قصة العثور على هذا المخطوط الثمين، الذي كتبه أسامة بن منقذ بخط يده،

فيرويهما كراتشكوفسكي (١٨٨٢-١٩٥١) في كتابه (مع المخطوطات العربية)، ويذكر فيه الفرحة الغامرة التي تملكته حينذاك، فيقول إنه في نهاية القرن السابع عشر وصل من جنيف إلى سورية شخص يدعى «روسو»، وهو ينحدر من أسرة الكاتب الفرنسي الشهير جان جاك روسو، التي ذاع صيتها فيما بعد، فعاش فيها حياة أفضل من حياته في وطنه، وقد استطاع أن يجمع بعض الثروة. وعشية الثورة الفرنسية كان ابنه فصلًا لحكومته في حلب وبغداد، وكان حفيده قد ترعرع في الشرق بثقافته الفرنسية، وأتقن العربية والفارسية والتركية، واقتنى خطوط أبيه فغدا تاجراً ووكيلاً قسلياً، وأقام في حلب - التي كانت آنذاك مركزاً ثقافياً مهماً - مدة طويلة، فطور ذوقه الأدبي، ونشأ لديه ميل إلى جمع المخطوطات، فتكونت لديه بالتدريج مجموعة كبيرة من المخطوطات اختبرت بمهارة وعناية.

ويبدو أن ظروفه المادية قد ساءت ففكر عام ١٨١٥م أن يبيع هذا الكتاب مع مجموعة الكتب التي اشتراها، فعرضها بادئ ذي بدء على الحكومة الفرنسية، لكنها رفضت شرائها، بسبب ارتفاع ثمنها، والعجز الذي وقعت فيه ميزانية فرنسا بعد حروب نابليون، ولما سمع بها المستشرق الفرنسي سلفستردى ساسي^(٣)، نقل الخبر إلى صديقه وزير التعليم الشعبي في روسيا السيد أوفاروف، فرحب بشرائها، واشترها على دفعتين، الأولى عام ١٨١٩، والثانية عام ١٨٢٥، وهكذا خسرت فرنسا هذه المجموعة الثمينة، وظفرت بها روسيا، التي جعلتها نواة لمجموعات المتحف الآسيوي العالمية.

ثم يتحدث كراتشكوفسكي مطولاً عن أهمية مخطوطات روسو التي نقلها من حلب إلى بطرسبرغ، والتي باعها إلى قيصر روسيا، ومنها مخطوطة «المنازل والديار»، التي عثر عليها ضمن هذه المجموعة، فيقول:

«حين أسس مكسيم غوركي داراً لنشر الآداب العالمية، وتمكّن المجمع الاستشراقي من توحيد جميع المستشرقين في عمل حذّاب ذي برنامج واسع لأول

مرة، أعد برنامج واسع للكتب العربية التي يلزم ترجمتها، ومنها كتاب «الاعتبار» لأسامة بن منقذ، ذلك الفارس الصباد الذي عاش إبان حروب الفرنجة. أما كتابه «المنازل والديار» فلم يقف عنده أحد من المستشرقين، باستثناء «فرين»، الذي أشار إليه إشارة خاطفة. أما المستشرق الفرنسي «ديرانورغ»، الذي قضى نصف حياته تقريباً في دراسة مؤلفات أسامة بن منقذ، فلم يعرف شيئاً عن هذه المخطوطة، التي كتبها مؤلفها بخط يده، وهو في السابعة والسبعين من عمره^(١).

كف عثر على المخطوطة

بصف كراتشكوفسكي الشوكة العارمة التي اجتاحت حين اكملت عنباه برؤية تلك المخطوطة النادرة المخزونة في المتحف الآسيوي، ويروي كف ارتعشت بداهة وتملكه الرعب، فيقول: «لقد ارتعشت بدائي، وتملكني الرعب حين فتحت هذا المجلد، فقد فكرت، على الرغم من التشكك، أنني سأرى حقاً في داخل هذا المجلد سطوراً كتبت عن حياة صلاح الدين ورينشارد قلب الأسد بيد معاصرهما الشريف، صديق الأول وعدو الثاني»^(٢).

فتح كراتشكوفسكي المخطوط ذا الجلد الأسود، ونظر في نهايته وبدائه بعطش شديد، وكم كانت خيبته كبيرة، فقد ظهر ناقصاً في بدائه. نهايته غير موجودة، وبدائه كتابتها معادة في فترة متأخرة جداً عن كتابة الجزء الأساسي، وهي مكتوبة بخط آخر وعلى أوراق جديدة.

وبصرح أسامة بن منقذ بأنه ألف كتابه «المنازل والديار» في أواخر حياته حين كان في السابعة والسبعين من عمره، وقد ملأه برناء أهله، الذين قضى عليهم زلزال دهم «شيزر» في عام ٥٥٢هـ (شهر آب عام ١١٥٧م)، فهذه أركانها ودمرها تدميراً، وقضى على أهلها، فلم يبق من بني منقذ أحد ممن كانوا فيها، ونجا أسامة وولده لبعدهما عنها، فيقول: «دعاني إلى جمع هذا الكتاب مائال بلادي وأوطاني من الحراب، فإن الزمان جرّ عليها ذيله، وصرف إلى تصفيتها حوله وحبله (...) فقد دثر

عمرانها، وهلك سكانها، فعدت مغانيها رسوماً، والمسرات بها حسرات وهموماً، ولقد وقفت عليها بعدما أصابها من الزلازل مألصاتها (...). فما عرفت داري، ولا دور والدي وإخوتي، ولا دور أعمامي وبني عمي وأسرتي، فبهت متحيراً مستعزداً بالله من عظيم بلائه، وانتزاع ماخوئله من نعمائه... وقد عظمت الرزية حتى غاضت بوارد الذموع وتنابت الزفرات^(١).

لم يؤلف أسامة بن منقذ كتاب «المنازل والديار» إثر الزلزال الذي دمر قلعة شيزر، بل انتظر خمسة عشر عاماً حتى هدأت نفسه واستقرت مشاعره، فشرع في تأليفه بعد أن بلغ من الكبر عتياً، وارتاح من خوض المعارك، وممارسة هواية الصيد والفنص.

لقد أتاحت له الحياة المستقرة التي عاشها في حصن «كيفا» (المطلّ على نهر دجلة بين ديار بكر وجزيرة ابن عمر ضيفاً على الأمير فخر الدين) أن يؤلف عدداً كبيراً من الكتب. وقد أحصى له المؤرخون ما يقرب من أربعين كتاباً في الشعر والبلاغة والتاريخ وغير ذلك. وأهم هذه الكتب كتاب «المنازل والديار»، الذي يحتوي على مجموعة كبيرة من الأشعار والمقطوعات الثرية، التي يحكي فيها رواية أو قصة لتوضيح حادثة معينة، أو حفيقة غامضة، وجمع فيها أشعاراً من العصر الجاهلي حتى أيامه، وكلها تعرف أنغام الحزن لفراق الأحبة والديار، والحنين إلى الوطن المهجور، فهو صدى لتراجيديا أوتر جيع لمشاعره المؤلمة الحزينة.

لقد هكّى أسامة بن منقذ في كتاب المنازل والديار أهله وبلدته «شيزر» بفصائد عامرة بالمشاعر الإنسانية كقوله في إحداها:

حمائم الأميك هبجشن أشجانا فليبك أصدقنا بشاً وأنجانا
قالوا: تأس وقالوا: بمن؟ وإذا أفردت بالرزء ما أنفك أسواتنا
استدعى صلاح الدين الأيوبي أسامة بن منقذ إلى دمشق عام ٥٧٠ هـ

(١١٧٤م). وكان «مرهف» بن أسامة من جلسائه، قلعله طلب منه أن يستدعي أباه من معتكفه في حصن كيفا، ففعل، فرعاه صلاح الدين رعاية كريمة وقرّبه وأغدق عليه، وأقطعته ضيعة في أطراف المعرة وأملأها في دمشق، وأخذ يستشير في أمره، ويكتب إليه بأخباره، حين كان يخرج لقتال الفرنجة، وظل يعيش في دمشق، وبلغ بعض الدروس في مدارسها، وبغشى مجالسها العلمية، إلى أن حصلت جفوة بينه وبين صلاح الدين، فانطوى على نفسه وظل كذلك إلى أن وافته المنية عام ٥٨٤ هـ (١١٨٨م)، ودفن في سفح جبل قاسيون على جانب نهر يزيد الشمالي، وكان قبره معروفاً إلى أيام ابن خلكان صاحب وفيات الأعيان^(١).

ويذكر كراتشكوفسكي أن أسامة بن منقذ حمل معه إلى دمشق من حصن «كيفا» مكتبة كبيرة، كما فعل حين رحل من مصر إلى سورية، غير أن تلك المكتبة التي حملها من مصر غرقت مع باقي أشياءه في البحر، وقد ترك غرق مكتبته جرحاً في قلبه لم يندمل حتى آخر حياته. أما كتابه «النازل والديار» فكان من جملة الكتب التي حملها معه من حصن كيفا.

الهوامش

- ١ - بشر مصبة، مجلة الإحياء الإيرانية رقم ٥٢٦ لعام ١٩٧٨.
- ٢ - الدكتور وهب طنوس: الوطن في الشعر العربي، منشورات جامعة حلب، كلية الآداب ١٩٧٩-١٩٨٠.
- ٣ - سلفستر دي ماسي مستشرق فرنسي (١٧٥٨-١٨٣٨) أنشأ الجمعية الآسيوية الفرنسية، ومث في ظروب معاصره القهرة على الدروس الشرقية، ولا سيما العربية. له مؤلفات عديدة في الشؤون الشرقية.
- ٤ - مع المخطوطات العربية لكراتشكوفسكي، منشورات دار التقدّم بموسكو، صفحة ١٥٥.
- ٥ - المصدر السابق، ص ١٦٦.
- ٦ - المصدر السابق، صفحة ١٦٩.
- ٧ - مقدمة المختار من كتاب «الاعتبار»، د. عبد الكريم الأنتشر، وزارة الثقافة، ١٩٨٠، صفحة ٦ و ٧.